المقدمة

هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 لم تخرج من رحم العدم. فعلى امتداد عقد تسعينيات القرن العشرين كان حشد من الحركات الإسلامية الداعية إلى العنف دائباً على التآلف، رافعاً أنظاره عن الصراعات المحلية نحو 'العدو البعيد' المتمثل بالولايات المتحدة والغرب. والمنظمة المنبثقة من هذا التآلف كانت ستُعرف باسم القاعدة. أما رواية عمر الناصري فتقدم صورة داخلية فريدة لهذه الفترة الحاسمة الباقية خارج دائرة الفهم المعمَّق. وقصته فريدة ولو لمجرد أنها توفر نظرة غير اعتيادية لشخص تسلل إلى صفوف هذه الشبكات الإرهابية. إن المفهوم المتكرر كثيراً والقائل بأن إلحاق الهزيمة بالإرهاب يتطلب استخبارات ناجحة يحجب واقع أن جمع الاستخبارات يستدعي وجود أفراد مستعدين للمخاطرة بحيواتهم عبر التحول إلى جواسيس. وهم أفراد نادراً ما تتم إماطة اللثام عن قصصهم.

يوفر الناصري مشهداً نادراً: صورة جماعات إسلامية متزايدة القوة في تسعينيات القرن الماضي، أساليب التسلل إلى صفوفها، ومدى إخفاق السلطات في إدراك الخطر الناشئ. ثمة ظروف عائلية تمخضت عن تواصل الناصري مع إحدى الشبكات الإرهابية، وساهمت نشأتُه غير الاعتيادية الموزعة بين شمال أفريقيا وبلجيكا في تمكينه من أن يعيش حياة مزدوجة.

obeikandl.com

بعد أن أمضى ما يزيد على سبع سنوات في خدمة أجهزة الاستخبارات الفرنسية، البريطانية والألمانية، يطلعنا الناصري على الوجه الداخلي لأساليب عمل هذه الأجهزة. إن روايته لقصص الاجتماعات، الأحاديث، و'الأساليب الحرفية' للأجهزة المختلفة تفصيلية على نحوٍ غير عادي. يبقى الناصري غير عادي أيضاً في كونه قد جمع بين الفرنسيين والبريطانيين متخذاً من المملكة المتحدة مقراً له، مسلِّطاً الضوء على تعاون البلدين رغم موقفيهما المختلفين من خطر الإرهاب. وهو يكشف النقاب عن مدى تعقيد دوافعه كما عن جملة الحلول التوفيقية الأخلاقية التي يلوذ بها الجواسيس من ناحية وأولئك الذين يشغِّلونهم من ناحية ثانية. وسلسلة القرارات الضبابية أخلاقياً التي أقدم الناصري ومشغِّلوه على اتخاذها تتحدى المفاهيم التبسيطية عن الطبيعة الحقيقية لمكافحة التجسس. وارتباك الناصري الواضح حول تحديد ولائه في منعطفات معينة يؤكد مدى صعوبة أن يعيش المرء حياة مزدوجة جاسوساً من ناحية ومجاهداً من ناحية ثانية إضافةً إلى مدى صعوبة تعامل الأجهزة الاستخباراتية مع أمثال هذا الجاسوس + المجاهد.

على الرغم من احتمال استحالة تأكيد كل تفاصيل قصة الناصري، ليس ثمة أي شك حول صحة مسيرته العملية غير الاعتيادية: مسيرة التورط مع شبكة إرهابية جزائرية مهمة في أوروبا، العمل مع جهاز سري فرنسي، السفر إلى معسكرات التدريب في أفغانستان، وصولاً، آخر المطاف، إلى التسلل إلى صفوف أوساط إسلامية متطرفة في لندن. لابد لأي مذكرات شخصية من هذه النوعية من أن تعكس وجهة نظر الراوي وتقدم صورة شخصية إلى حدٍّ كبير وغير مكتملة أحياناً للأحداث. غير أن ما هو واضح من الرواية التي نحن بصددها هو أن الشبكة المنبثقة كانت أفضل تنظيماً وأشد تصميماً بما لا يقاس عما كان متصوَّراً من قبل. إن معسكرات التدريب الأفغانية كانت مفاقس تفريخ التهديد الإرهابي الراهن، والناصري يقدم الصورة الداخلية الأكثر تفصيلاً لتلك

المعسكرات حتى اللحظة ـ صورة أغنى وأكثر إثارةً للقلق من أي صور سبق للمرء أن رآها.

مع أن الناصري ذو جذور مغربية، فإن جزائريين يشكلون محور روايته، لأن هؤلاء كانوا يؤلفون نواة الشبكة الإرهابية الإسلامية الأوروبية قبل 9/11. فالجزائر كانت قد انزلقت إلى حرب أهلية دامية بعد قيام الجيش بإلغاء الانتخابات في 1992 لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS) من الوصول إلى السلطة. تفجرت أعمال العنف وانبثقت سلسلة جماعات متمردة. تمثلت أكثرها عنفاً بالجماعة الإسلامية المسلحة (GIA). يقال إن نحو ثلاثة آلاف جزائري قاتلوا ضد السوفييت في أفغانستان خلال عقد ثمانينيات القرن العشرين، وكانت الجزائري أول البلدان التي أحسَّتْ بتأثير المقاتلين المخضرمين العائدين من الحرب الأفغانية. كانت الجماعة بقيادة المئات ممن صقَلَتْهم المعارك وعادوا أشد تطرفاً وأكثر استعداداً لاعتماد تكتيكات متزايدة القسوة والوحشية باطراد، وهي معتمدة على دعم منظومة شبكات ناشطة في الجاليات المهاجرة إلى أوروبا. بدايةً كانت شبكات الدعم هذه مشغولة، في المقام الأول، بالدعاية، ولكنها سرعان ما بدأت تقدم التبرعات، أشكال الدعم اللوجستي كجوازات السفر المزوَّرة، وصولاً، مع الزمن، إلى تزويد الجماعة بالأسلحة.

لدى عودته إلى بلجيكا في 1994، اكتشف الناصري أن بيت أمه كان قد أضحى بؤرة مهمة لعمليات الجماعة. ونظراً لقلة قوانين مكافحة الإرهاب في بلجيكا، كانت الجماعات تواجه قدراً أقل من المراقبة والإزعاج من جانب الشرطة والأجهزة الأمنية مقارنة بفرنسا المجاورة. ووفقاً لما يقوله هو، فإن الناصري لم يصبح متورطاً مع الجماعة لأسباب إيديولوجية، بل رغبة، بداية، في كسب المال عبر تزويد هذه الجماعة بالأسلحة. غير أنه سرعان ما وجد نفسه غاطساً في بحر نشاطاتها.

obeikandl.com

ثمة مجابهة مع أعضاء الجماعة جراء سرقة بعض المال ما لبثت أن وضعت الناصري أمام خيار مصيري. ومثل آخرين كثيرين ممن ساروا في هذه الطريق، انجرَّ الناصري إلى أن يصبح جاسوساً عن حاجة لا عن اختيار أخلاقي، مقدماً نفسه لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، (DGSE)، رغبة منه في الخروج من موقف صعب. في هذه الأثناء بدأت فرنسا تكثف تعاونها مع بلجيكا، منفِّذة سلسلة من عمليات المراقبة المشتركة المطوَّلة، ولاسيما بعد إدراك الفرنسيين لمدى اتساع الشبكات الإرهابية وما تنطوي عليه من تهديد.

إن قائمة حقيقية بأسماء المناضلين والنشطاء الجزائريين مرت ببيت الناصري. لم يقف الأمر عند هذا بل كانت نشرة الجماعة الرئيسية ـ رسالة الأنصار الإعلامية ـ تصدر وتوزع من هناك. وتطور الأنصار بالذات كان يشي بالتحولات التي كانت الشبكات الإسلامية تعيشها خلال عقد التسعينيات. برزت النشرة بوصفها مطبوعة الجماعة الرسمية، على الرغم من أن مقالات لجهات أخرى بدأت تظهر فيها مع مرور الزمن، بما فيها منظمات إسلامية أخرى مثل الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة، جماعات مغربية، وجماعات مصرية مرتبطة بأيمن الظواهري. كذلك صار محتواها متزايد العنف، إذ راحت تبرر قتل المدنيين ممن لا يؤيدون نشاط الجماعة. كانت الأنصار طليعية ورائدة في توحيد الشبكات الكفاحية الإسلامية الوطنية وإذابتها في حركة كوكبية، كما أن محتوياتها شكلت إنذاراً للسلطات حول ما كان منتظراً.

لم يتأخر الصراع الدامي في الجزائر في أن يبدأ بأن يفعل فعله داخل أوروبا. ففرنسا، مستعمرة الجزائر السابقة، رآها الجهاديون داعمة للانقلاب وأصبحت هدفاً لهم. وقد جاء التهديد المثير الأول متمثلاً بإقدام عدد من نشطاء الجماعة على الاستيلاء على إحدى طائرات الركاب النفاثة على مدرج مطار مدينة الجزائر بتاريخ 24 كانون الأول/ديسمبر 1994. ربما كانت الجماعة عازمة

أيضاً على صدم برج إيفل بالطائرة، في واحدة من التجارب الأولى المحتملة لاستخدام الطائرات أسلحة. أخيراً، طارت الطائرة إلى مرسيليا حيث قامت قوة مكافحة إرهاب فرنسية باقتحامها وقتل مختطفيها الأربعة.

في آذار/مارس 1995، نفذت السلطات البلجيكية سلسلة من عمليات المداهمة التي يصفها الناصري. كانت تلك إحدى أولى سلاسل العمليات الأمنية ضد الشبكات الجزائرية في أوروبا. تعرض منزل عائلة الناصري للاقتحام، كما تم العثور على مجموعات من الأسلحة، الذخائر، والوثائق المزورة في بيوت، كراجات، وسيارات أخرى. كذلك تم العثور في إحدى السيارات على دليل إرهابي مؤلَّف من ثمانية آلاف صفحة مع صفحة إهداء لكل من أسامة بن لادن وأستاذه عبد الله عزام. وحسب كلام ألان غرينار، أحد عناصر جهاز مكافحة الإرهاب في بلجيكا الذي تولى عمليات الاقتحام هذه، فإن الدليل كان كنز معلومات وأحد أول المؤشرات على مدى اتساع الشبكة من ناحية ودور بن لادن فيه من ناحية ثانية.أكدت عمليات الإغارة صَوابَ تزايد القلق من أن تكون الشبكة عاكفة على إطلاق سلسلة حملات داخل أوروبا بالذات. وما لبث ذلك أن تأكد بعد بضعة أشهر، في صيف 1995، حين تعرضت فرنسا، بما فيها مترو باريس، لموْجة من الهجمات بالقنابل والمتفجرات. بعض المتورطين في تلك الحملة كانوا مرتبطين، بدورهم، بالشبكة التي تم اكتشافها في مداهمات آذار/مارس. تمخضت حملة التفجيرات عن تغيير موقف فرنسا من الشبكات الإرهابية، جاعلة إياها إحدى أولى الدول الغربية المتنبِّهة إلى المخاطر الكامنة، مع أن فرنسا كانت، في البداية، ترى المشكلة أثراً جانبياً مترتباً على تورطها في النزاع الجزائري بدلاً من رؤيتها جزءاً من جهاد دولي أكبر.

كان أحد أولئك الذين أقاموا في بيت الناصري بعضَ الوقت وتمكَّن من تجنب الاعتقال خلال حملات آذار/مارس 1995 مسؤولاً كبيراً في تنظيم

الجماعة يدعى علي توش. وهذا الأخير مثال حي على الاختلاط الحاصل بين الإرهاب ومكافحة الإرهاب في هذه الفترة وعلى مدى عمق التشوش بشأن ولاءات الأفراد. ثمة مدرسة ترى أن الجماعة كانت مخترَقة من البداية بحشد من جواسيس جهاز الأمن السري الجزائري. يضاف إلى ذلك أن بين هؤلاء كان عناصر تخريبية تعمدت مع حلول عام 1995 نقل موجة عمليات العنف إلى فرنسا سعياً إلى جر باريس إلى الصراع ضد الإسلاميين وإقناعها بضرورة الوقوف في صف الدولة الجزائرية. قدر كبير من الشك يحيط بعلي توش الذي ظل البعض يزعمون أنه كان يعمل لصالح الدولة الجزائرية من البداية وقد نجح في مراوغة الاعتقال عدداً من المرات. وهذا الشك يضفي عليه بعضَ الوزن موظفون فرنسيون يقولون إنهم تعقبوا توش إلى أن اهتدوا إلى ما يشير إلى أنه كان قد عاد إلى الجزائر. وإنه كان بالفعل ابن أحد مفوضي الشرطة.

حين قام الفرنسيون بإبلاغ الجزائريين عن اعتقادهم بأن توش كان قد عاد إلى الجزائر، قيل لهم إن توش كان قد قتل في اشتباك وقع في الجزائر العاصمة في شهر أيار/مايو 1997 وقد نُسي الأمر. يقول أحد ضباط الاستخبارات الفرنسية: 'نحن لا نعلم ما إذا كان حياً أم لا.' كذلك يعتقد الناصري أنه شاهد توش في لندن، رغم أنه تم التعرف عليه، مما يثير مزيداً من الأسئلة. ليس ثمة إلا القليل من الأجوبة على الأسئلة الدائرة حول هويته والجهة التي كان يعمل لديها.

عقب المداهمات البلجيكية، بادر الناصري إلى الاضطلاع بمهمة جديدة: مهمة التسلل إلى معسكرات التدريب الأفغانية. يبدو أن الرسميين الفرنسيين كانوا على علم بأن عدداً من المقيمين في فرنسا كانوا يختفون ليعودوا إلى الظهور بعد أشهر. وحسب كلام ضابط استخبارات سابق، فإن ما يتراوح بين مئة ومئتين من المقيمين في فرنسا سافروا إلى أفغانستان لتلقي التدريب خلال

التسعينيات. بعضهم ذهب للالتحاق بالجهاد الدولي؛ آخرون أرادوا فقط أن يتمكنوا، لدى العودة، من التباهي بأنهم باتوا ماهرين في استخدام رشاش ايه كي 47 - (AK-47).

أثبت الناصري أنه أهل لتنفيذ مهمته. وروايته لقصة أسفاره تقدم صورة شخصية ولكنها شديدة الشفافية وبالغة الغنى لكيفية توغله في الدوائر الجهادية وصولاً إلى قلب القاعدة. مسافراً عبر تركيا فالباكستان، تحرك الناصري داخل سلسلة من الجماعات الإسلامية المتطرفة. أمضى بعض الوقت في مجمّع تديره جماعة التبليغ، جماعة تبشيرية هادية نابذة للعنف. رغم أن منتقديها يزعمون أن مراكزها باتت مؤخراً مصائد لتجنيد المتورطين في الأعمال الجهادية القائمة على العنف. عبر احتكاك هناك اهتدى الناصري إلى البوابة الموصلة من الباكستان إلى أفغانستان، إلى مدينة بيشاور الصاخبة، مدينة الجواسيس، المجاهدين، والأسرار. هذه المدينة كانت أيضاً قاعدة عدد كبير من الأفغان العرب الذين خاضوا معارك الجهاد في الثمانينيات ثم بقوا في المنطقة.

هنا بالذات التقى الناصري أبا زبيدة، منسق وحامل مفاتيح عدد من معسكرات التدريب الأفغانية. يقول رئيس وحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) بين عامي 1996 و1999، مايك شْيوورْ: 'كان رجلاً ينفذ المهمات بالمعنى الإداري. إن اسم أبي زبيدة كان على الدوام بالغ البروز في آليات إيصال الناس إلى المعسكرات، استعادتهم منها، إطعامهم، تزويدهم بالوثائق، تسليحهم وتدريبهم.' ما لبث أبو زبيدة هذا أن اعتُقل أخيراً في آذار/مارس 2002 (اعتقال تمخض عن نقاش محموم في واشنطن حول المدى الذي يمكن بلوغه في تعذيبه). كما هي الحالة مع عدد كبير من الشخصيات التي وُصفت لاحقاً بأنها شخصيات قيادية في القاعدة، فإن علاقة أبي زبيدة المحددة بدقة مع القاعدة وبن لادن تبدو أكثر تعقيداً لأنه كان يعمل في المعسكرات مجنِّداً

obeikandl.com

ومنظِّماً قبل مجيء بن لادن، وليس واضحاً متى، أو ما إذا سبق له، أن أقسم يمين الولاء لبن لادن.

انتقل الناصري بعد ذلك عبر الحدود إلى داخل أفغانستان لتلقي التدريب. كان ثمة ما يزيد على عشرين معسكراً للتدريب، وقد كانت هذه المعسكرات موروثة، بأكثريتها، عن فترة القتال ضد الاتحاد السوفيتي. لعبت المعسكرات دوراً محورياً في عمليات التحول من الجهاد التأسيسي الأفغاني في الثمانينيات إلى جهاد التسعينيات الأممي، وصولاً مع حلول أواخر العقد إلى انبثاق الجهاد الكوكبي في ظل القاعدة. لقد كانت تلك المعسكرات البوتقات التي أذابت سائر الجماعات التي بدأت تتعاون مجترحة هوية مشتركة.

لم يكن ثمة مصدر واحد لتمويل المعسكرات أو التحكم بها وضبطها. فأفغانستان كانت في حالة فوضى أواسط التسعينيات. كان السوفييت قد طُردوا في 1989، ولكن الوحدة الهشة التي كانت موجودة في أثناء القتال سرعان ما تبددت. ثمة حكومة عميلة بقيادة محمد نجيب الله دامت حتى عام 1992، حيث أطاحت بها فرق مجاهدين ما برحت أن تقاتلت فيما بينها طلباً للسلطة والنفوذ، مع احتفاظ أمراء الحرب المحليين بالسيطرة على جيوب من البلاد.

إن أجواء الدولة المفلسة كانت مناسبة مئة بالمئة لبقاء معسكرات التدريب. بعضها كان خاضعاً لإدارة أمراء حرب محليين مثل غُلْب الدين حكمتيار وعبد الرب الرسول سياف، وممولاً، في الغالب، من قبل مناصري الجهاد في الخليج الفارسي. ومع أن بن لادن غادر أفغانستان بعد انتهاء المعارك مع السوفييت (سخطاً على التقاتل الداخلي جزئياً) وأقام في السودان خلال السنوات الأولى من التسعينيات، فإنه ظل يموّل أعداداً من المضافات ومرافق التدريب داخل أفغانستان بما في ذلك، حسب كلام الناصري، دفع قيمة الطعام في المعسكر الذي تدرب فيه.

كانت الوكالة الباكستانية لأجهزة الاستخبارات البينية (الآي اس آي ISI) مساهمة هي الأخرى في دعم بعض المعسكرات الأفغانية. في 1993، بدأت الولايات المتحدة تضغط على الباكستان بشأن معسكرات التدريب جراء المخاوف المتزايدة من النشاط الجهادي في كشمير. ذهبت واشنطن إلى حد التهديد بإدراج الباكستان على قائمة الدول التي ترعى الإرهاب. أعداد كبيرة من هذه المعسكرات كانت في القطاع الخاضع للباكستان من كشمير ولكنها أُغلقت على ما يبدو إثر الشكاوى الأمريكية. كانت مرافق التدريب قد نُقلت إلى أفغانستان بعد 1993. سرعان ما بدأت وكالة الآي اس آي الباكستانية دعم حركة الطالبان بوصفها أداة لضمان استقرار أفغانستان ودعم مصالح الباكستان الأمنية.

تزامنت فترة الناصري في المعسكر، الفترة المتوزعة على عامي 1995 و1996، مع صعود الطالبان السريع. وكما يُتذكر فإن العلاقات بين العرب المسؤولين عن إدارة المعسكرات والأفغان عموماً والطالبان خصوصاً كانت استثنائية التوتر. كان ثمة توجس من أن يكون الطالبان راغبين في إغلاق المعسكرات والاستيلاء على أسلحتها. كذلك كان يُنظر إلى هؤلاء الطالبان على أنهم أصحاب بدعة دينية خطرون. ولم يكن زواج المصلحة بين الطرفين سيتم إلا مؤخراً.

كان خالدان المعسكر الابتدائي الذي التحق به الناصري أولاً. وحسب روايته فإن طيف الأمم الممثلة والانضباط المميز للتدريب كانا، حتى أواسط التسعينيات، لافتين وأوسع مما كان يُظن من قبل بكثير. إن مجموعات من الجزائر، بلاد الشيشان، كشمير، قيرغيزيا، الفلبين، طاجكستان وأوزبكستان كانت تتلقى التدريب العسكري الذي كانت ستعتمده لدى العودة إلى أوطانها للقتال. أعداد كبيرة من العرب، ولاسيما من العربية السعودية، مصر، الأردن، اليمن، مرت أيضاً من هنا، إضافةً إلى أفراد من أوروبا، شمال أفريقيا، وأمكنة أخرى جاؤوا

طلباً للمشاركة في الجهاد. كان الصراع البوسني الذي سبق لكثيرين أن خاضوه في السنوات الأولى من التسعينيات قد أخذ يخبو، غير أن بلاد الشيشان بقيت قضية ذات شعبية. وهذان الصراعان المفتاحيان في التسعينيات كانا يوفران سبباً للتطرف، للتدرب على القتال ولتنظيم شبكات المجاهدين التي لم تكن تحظى بعد بالقدر الكامل من التقويم. وتماماً مثل الصراع الأفغاني في الثمانينيات، كانا يوفران الوسائل اللازمة لدفع الجماعات المختلفة والأفراد المتباينين إلى التلاقي ونسج العلاقات.

كان التدريب الذي حصل عليه الناصري في خالدان عالي التنظيم ومكثَّفاً. كان الانضباط في المعسكرات صارماً، غير أن شعوراً رفاقياً تطور أيضاً بين المشاركين. كان المجندون يتعلمون كيفية استخدام طيف واسع من الأسلحة والمتفجرات إضافةً إلى أساليب تنفيذ عمليات خاصة مثل الاغتيالات، التفجيرات، عمليات الخطف وحرب العصابات المدينية. بالاستناد أكثر الأحيان إلى كتب تدريب أمريكية تم الحصول عليها في أثناء القتال ضد السوفييت.

لم يكن التعليم الديني الذي كان المتدربون يحصلون عليه أقل شأناً من التدريب القتالي الذي كانوا يتلقونه. فالإعداد الروحي كان يُعد وجهاً مركزياً من وجوه الجهاد، وجهاً أكثر أهمية من التدريب الجسدي. كانت المعسكرات عوامل حاسمة لاجتراح ونشر تسويغ عريض مدعوم دينياً لاستخدام أساليب العنف المتطرفة، حتى ضد المدنيين. فالمفاهيم اللاهوتية الفقهية التي طُوِّرت ليس في أفغانستان فقط بل وفي أوروبا خلال التسعينيات كانت حاسمة على صعيد التأثير في عقول عشرات الآلاف من الأفراد. إن هذه المنطلقات الإرشادية ساهمت في ترسيخ إيديولوجيا ما بعد 9/11 الجهادية التي لم تكتف بمجرد البقاء بل وواصلت النمو والازدهار منذ استهداف قيادات القاعدة.

كانت محطة الناصري الأولى، معسكر خالدان، في الأصل، من تأسيس عبد الله عزام، أستاذ بن لادن في الثمانينيات. وممن مروا على هذا المعسكر ثمة

أفراد شاركوا في هجمات 1993 و2001 على مركز التجارة العالمي (بمن فيهم محمد عطا قائد حلقة منفذي هجمات 9/11)؛ أفراد شاركوا في تفجيرات السفارات الأمريكية في 1998؛ أحمد بسام بطل التفجير الألفي الفاشل؛ بطلا متفجرات الأحذية البريطانيان رتشارد رايد وساجد بادات؛ وزكريا موسوي المحكوم بالسجن مدى الحياة سنة 2006 لتورطه في مؤامرة 9/11. أما قائد معسكر خالدان أواسط التسعينيات فكان رجلاً يدعى ابن الشيخ الليبي الذي أمضى الناصري معه فترة ذات شأن من الوقت. والليبي هذا كان قد قاتل في أفغانستان في الثمانينيات؛ ومثل آخرين، لم يكن بالضرورة عضواً في القاعدة في التسعينيات، بل يُرجَّح أنه كان ناشطاً مستقلاً كان من شأن نشاطه ومعسكره أن ينضويا آخر المطاف تحت راية القاعدة.

ما لبث الليبي أن أصبح، فيما بعد، عنصراً حاسماً في الجدل الدائر حول المعلومات الاستخباراتية السابقة للحرب عن العراق. فالمدرب الليبي، الذي أُلقي القبض عليه في تشرين الثاني/نوفمبر 2001، كان أول أعضاء القاعدة رفيعي المستوى الذين اعتُقلوا من قبل الولايات المتحدة بعد الهجمات. عقب شجار بين مكتب التحقيقات الفدرالي (الاف بي آي FBI) ووكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA)، تغلبت الأخيرة وقامت بتسليمه إلى مصر حيث جرى تعريضه لسوء المعاملة والتعذيب. والمعلومات الاستخباراتية المستمدة من التحقيق معه استُخدمت من قبل مسؤولين أمريكيين كبار لتأكيد وجود علاقة بين العراق والقاعدة، استناداً إلى زعم الليبي بأن العراق كان قد عرض التدريب على القاعدة في كانون الأول/ديسمبر 2000. هذه المعلومة أوردها كل من نائب الرئيس تشيني، ووزير الخارجية كولن باول في خطابه المحوري أمام الأمم المتحدة في شباط/فبراير 2003، والرئيس جورج دبليو بوش في سينسيناتي في تشرين الأول/أكتوبر 2002، حين قال: "لقد عَلِمْنا أن العراق قام بتدريب أعضاء من القاعدة على صنع المتفجرات والسموم والغازات."

تمثلت المشكلة بأن الليبي كان يكذب. ففي وقتٍ مبكر يعود إلى شباط/فبراير 2002، كان أحد تقارير جهاز استخبارات الدفاع يقول باحتمال قيامه 'بالتضليل المتعمد للمتحققين' بسبب عجزه عن تقديم تفاصيل محددة عن عمليات التدريب التي يفترض أنها حصلت. وفي كانون الثاني/يناير 2004، أنكر الليبي مزاعمه حول العراق، مُجْبِراً وكالة الاستخبارات المركزية على سحب جملة التقارير الاستخباراتية المستندة إلى أقواله.

قيل إنه ربما كان يقدم معلومات زائفة لجر الولايات المتحدة إلى مهاجمة العراق. ورواية الناصري تميل إلى تصويب وجهة النظر هذه لأنه يقول إن الليبي عَبَّر عن كرهه لنظام صدام حسين العلماني في العراق وكان أيضاً ذا مهارة عالية في مقاومة التحقيق. إن الوثائق والنشرات التدريبية، التي تم العثور عليها في أفغانستان بعد 2001، تبين أيضاً أن أعضاء القاعدة كانوا يُلقَّنون التفكير بالجهاد لا بوصفه مجرد أمر يتم في ساحة القتال بل بوصفه حرباً يمكن خوضها بعد الاعتقال عن طريق تقديم معلومات زائفة. يقال إن الليبي جرى تسليمه في ربيع 2006 إلى السلطات الليبية.

في معسكر خالدان نجح الناصري، على ما يبدو، في التميُّز عن المجندين الآخرين. تماماً كما وجدتْ أجهزة التجسس أن من شأن نشأته غير العادية أن تجعل منه جاسوساً جيداً، اعتقد قادة المعسكر أيضاً أن من شأنه أن يكون مفيداً لقدرته على التحرك في الأوساط الغربية بقدرٍ أكبر من اليُسْر من ناحية ولتحلّيه باستقلالية التفكير، على النقيض من أكثرية الموجودين في المعسكر، من ناحية ثانية. ونتيجةً لذلك فقد كان أحد القليلين الذين اختيروا للانتقال إلى معسكر دارونتا الأكثر تقدماً.

في حين أن خالدان ركز على التدريب على القتال، بالنسبة إلى الجماعات في الغالب، فإن دارونتا كان يوفر تدريباً أكثر تخصصاً وفردية في مجالات

المتفجرات والإرهاب لأولئك الذين أتموا المرحلة الأولى بنجاح. في خالدان كان المجندون يتعلمون كيف يقومون بتفجير المتفجرات؛ أما في دارونتا فكانوا يتعلمون كيف يصنعون المتفجرات والصواعق من الصِّفْر. وأولئك الذين انتقلوا إلى دارونتا كانوا أقل احتمالاً أن يكونوا أعضاء جماعة عاكفة على التحضير لاشتباكات عسكرية في وطنها وأكثر احتمالاً أن يكونوا أفراداً يجري إعدادهم ليكونوا أعضاء خلايا إرهابية نائمة كلاسيكية، متطلبين، بالتالي، جملة مغايرة من المهارات.

كان معسكر دارونتا قد بُني حول قاعدة عسكرية سوفيتية سابقة إلى الغرب من جلال أباد. كان المعسكر يشتمل على عدد من المباني والثكنات لإيواء مجموعات كفاحية مختلفة. ومن أولئك الذين تخرجوا في دارونتا قبل تدميره بالضربات الجوية الأمريكية في تشرين الأول/أكتوبر 2001 أحمد بسام الذي دين لاحقاً بالتورط في مؤامرة التفجير الألفي ضد مطار لوس أنجلوس الدولي.

ذلك هو المكان الذي عكفت فيه القاعدة على إجراء الاختبارات على الأسلحة الكيميائية بقيادة أبي خبب المصري الذي يقول الناصري إنه التقاه. وأجهزة الاستخبارات الأمريكية بدأت تطّلع على اشتغال المصري بالأسلحة الكيميائية نحو 1998 - 1999 وقد تأكد الأمر بعد سقوط الطالبان في 2001، حين عثر المراسلون على مختبر يحتوي على مركبات كيميائية ووثائق فيها توجيهات حول كيفية تصنيع غاز الأعصاب: سارين. وخارج المختبر ثمة كانت بقايا حيوانات نافقة مربوطة بأوتاد معدنية كانت تستخدم للتجريب. إن رواية الناصري تأتي على ذكر إجراء تجارب أسلحة كيميائية في وقت مبكر يعود إلى أواسط التسعينيات، قبل أن يرد أي كلام عنها.

كم من المعلومات كانت متوفرة لدى الولايات المتحدة عن المعسكرات وعن طبيعة التدريبات الجارية داخلها؟ ومع أن صانعي القرار السياسي الأمريكيين

كانوا قد أداروا ظهورهم إلى أفغانستان بعد انسحاب القوات السوفيتية في 1989، فإن خبراء الاستخبارات ومكافحة الإرهاب الأمريكيين باتوا متزايدي الإدراك لدور المعسكرات وللخطر الذي كانت تمثله. وحين قام المحققون بإمعان النظر في تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993 إضافة إلى نشاطات أخرى ذات علاقة، اهتدوا إلى خيط مشترك يربط بين هذه العمليات المبكرة: ألا وهو خيط أفغانستان.

إن رمزي يوسف، الذي خطط لهجوم 1993، كان قد تدرب في خالدان والتقى شريكه في المؤامرة هناك. ثمة تقدير للاستخبارات القومية كان لا يزال سرياً، وقد نُشر في 1995 بعنوان: 'التهديد الإرهابي الخارجي للولايات المتحدة' كان يقول إن التهديد الإرهابي الأكثر احتمالاً بالنسبة إلى الولايات المتحدة هو الصادر عن إسلاميين متطرفين ذوي ارتباطات مع أفغانستان.

غير أن المعلومات الاستخباراتية بقيت متشظية وجزئية. صحيح أن معلومات استخباراتية بشرية معينة كانت متوفرة عن المعسكرات القريبة من الحدود الباكستانية، إلا أن معسكرات أخرى، مثل دارونتا، كان أصعب على عمليات التسلل. بقيت الولايات المتحدة تعوّل، إلى حدٍّ كبير، على صور الأقمار الصناعية إلى أن بادرت وكالة الاستخبارات المركزية إلى تأسيس محطة أليك في 1996، وحدة مكلفة بتعقب فعاليات أسامة بن لادن. ثمة تقديرات تزعم أن ما بين عشرة إلى عشرين ألفاً من الأفراد مروا بالمعسكرات، من عام 1996 إلى هجمات 9/11، لتلقي التدريب. وهناك آخرون يعتقدون بأن من شأن الرقم أن يكون أعلى، وصولاً حتى إلى مئة ألف. ما من أحد تعقب مسار هؤلاء أو حاول الاهتداء إلى أولئك الذين ذهبوا، بدورهم، من أجل تدريبهم.

بعد مغادرة الناصري لأفغانستان في ربيع 1996 مباشرة، عاد بن لادن. جاء من السودان في 19 أيار/مايو 1996. على متن طائرة تشارتر ذات ستة ركاب،

بعد السماح له بالهبوط في جلال أباد من قبل جهاز الآي اس آي الاستخباراتي الباكستاني. كان الضغط على مضيفيه السابقين في السودان قد أصبح بالغ الشدة، وتلقى رسالة تشي باستحالة استمرار تمتعه بالحماية التي سبق له أن كان متمتعاً بها في سنوات سابقة.

كان بن لادن واصلاً في منعطف حاسم حيث كانت حركة الطالبان موشكة على الإمساك بالسلطة. بدايةً نأى بن لادن بنفسه عما كان يجري، غير أن حركة الطالبان باتت صاعدة بوضوح مع حلول صيف 1996. في اجتماع، ربما كان من ترتيب جهاز الاستخبارات الباكستاني، قابل بن لادن الملا عمر وكبار قادة الطالبان ليعرض دعمه، بما فيه التزويد بالمال والمقاتلين من أجل ضمان الانتصار في المعارك الفئوية المريرة المستعرة فيما بين المجاهدين.

مع حلول شهر أيلول/سبتمبر كان الطالبان قد استولوا على جلال أباد. وقد كانوا مستعدين لتزويد بن لادن والقاعدة بملاذ آمن يستطيعان فيه أن يباشرا التخطيط لعمليات أكثر إثارة مسرحية. لم يكن الطالبان شديدي الاهتمام بمعسكرات التدريب ولاسيما تلك التي درجت على استيراد العرب والغرباء، غير أن من المحتمل بقوة أن يكون بن لادن قد أقنعهم بضرورة توليه إدارة تلك المعسكرات التدريبية بنفسه.

بعد عودته من أفغانستان وإثر فترة طويلة من الانقطاع، اجتمع الناصري ثانية مع جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس اي DGSE)، الذي عرض عليه مهمة جديدة. عقب مداهمات آذار/مارس 1995 وجملة تفجيرات ذلك الصيف، كانت البنية الداعمة للجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) - بما في ذلك تحرير نشرة الأنصار ونشرها - قد قامت برحلة قصيرة من فرنسا وبلجيكا إلى المملكة المتحدة. فبعد الانهيار في فرنسا وبلجيكا، كانت أجواء لندن الأكثر تسامحاً هي الجاذبة أكثر للجهاديين. ثمة ضابط مكافحة إرهاب بلجيكي

obeikandl.com

يدعى آلان غرينار يفسر الأمر قائلاً: 'كانت لندن نقطة التركيز' معبِّراً عن قناعته بأنها عُدت 'محطة انتقال' من حقبة متطرفين إسلاميين وطنيين (منتمين إلى أوطان مختلفة) إلى حقبة الشبكة الكوكبية التي تأسست في بوتقة الإذابة الأفغانية.

سنوات أواسط إلى أواخر عقد التسعينيات كانت هي السنوات التي اكتسبت فيها العاصمة البريطانية تسمية 'لندنستان'، وهي تسمية أطلقها رسميون فرنسيون غاضبون من الحضور المتنامي للمتطرفين الإسلاميين في لندن ومن إخفاق السلطات البريطانية في عمل أي شيء بشأن الموضوع. تاريخياً، بقيت لندن ملاذاً للمنشقين والمعارضين، وبدءاً بالثمانينيات كانت أيضاً قد زادت من إيوائها لمتطرفين إسلاميين حاصلين على حق اللجوء من موظفين لم يكونوا مؤهلين لفهم طبيعة نشاط هؤلاء.

وكما يتضح من رواية الناصري فإن العلاقات بين جهازي الاستخبارات الفرنسي والبريطاني كانت ودية، ولكن الفرنسيين كانوا بدؤوا يعبرون عن خيبة الأمل. سلسلة المداهمات في فرنسا وبلجيكا كانت قد تمخضت عن جملة من أرقام الهاتف والفاكس ذات العلاقة بالمملكة المتحدة، وكانت أسماء مشبوهين قد قُدمت. بعض الموظفين الفرنسيين يعتقدون بأن قيام البريطانيين ببذل قدرٍ أكبر من الجهد في الوقت المناسب كان من شأنه أن يفضي إلى تفكيك الشبكة الكامنة وراء تفجيرات 1995 وصولاً إلى الحيلولة، بالتالي، دون وقوعها.

بُعَيْد وصوله جرت إعادة ربط الناصري بالأنصار التي صارت تُطبع في لندن. ومن أولئك الذين باتوا منخرطين في العمل مع الأنصار بلندن قبل عودة الناصري كان ثمة رشيد رمضا، وقد شوهد من قبل مع أوساط الجماعة الإسلامية المسلحة في كل من فرنسا وبلجيكا. وحين طلب قاضي مكافحة الإرهاب الفرنسي جان - لوي بروغوير من بريطانيا إلقاء القبض على رمضا

المتهم بتمويل عمليات التفجير في مترو باريس، جاء رد الفعل البريطاني الأولي متمثلاً بالزعم باستحالة إلقاء القبض عليه لعدم قيامه بأي مخالفة في المملكة المتحدة، وهو زعم دأب الموظفون البريطانيون على تكراره. صحيح أن رمضا جرى اعتقاله غير أنه قاوم الترحيل مدة عشر سنوات مما زاد من إغاظة الفرنسيين. قصته صارت رمزاً لجملة التوترات بين البلدين على صعيد محاربة الإرهاب. فقط في كانون الأول/ديسمبر 2005 قامت بريطانيا أخيراً بنقله إلى سجن فرنسي. وقد تمت عملية تجريمه بباريس في آذار/مارس 2006 فيما يخص تفجيرات أواسط التسعينيات.

في لندن، تمت إدارة الصلة مع الناصري على نحوٍ مشترك بين جهازي الاستخبارات الفرنسي والبريطاني وجرى تكليفه بمهمة التسلل إلى دائرة الجماعات المتطرفة. خلال فترة قصيرة من الوقت نجح الناصري في الوصول إلى جامع فينزبوري بارك الواقع في الطرف الشمالي من لندن، في لحظة محورية من التاريخ. واعظ جديد، رجل صاعد يحمل اسم أبي حمزة، كان قد وصل للتو. كان فاقداً لإحدى عينيه إضافةً إلى يديه - إحدى الأخيرتين مُسْتَبْدلة بكلاب. وهذا المصري الذي كان قد أمضى بعض الوقت في المعسكرات الأفغانية، نجح في إخفاء آرائه المتطرفة عن الأمناء القيمين الذين وافقوا على تعيينه إماماً للمسجد. غير أن توترات سرعان ما نشأت بين مؤيدي أبي حمزة بأكثريتهم الشمال أفريقية من جهة والحرس القديم في الجامع وهم منتمون في الغالب إلى الجاليتين الباكستانية والبنغالية. من جهةٍ ثانية، ما لبث التوتر أن تطور وبسرعة إلى نوع من الترهيب، وبات واضحاً أن جماعة متطرفة من جيل جديد، أكثر شباباً، كانت موشكة على الإمساك بزمام الأمور.

عمل أبو حمزة وأعوانه على قلب مسجد فينزبوري بارك إلى الملاذ الأول والمركز التنظيمي الرئيسي لأولئك الملتزمين بالجهاد الدولي لا في بريطانيا

وحسب بل وفي أوروبا كلها. نحو ما لا يقل عن مئتي شخص دفعة واحدة كانوا ينامون في القبو. ومن أولئك الذين مروا من هنا يُذْكَر زكريا موسوي، إضافةً إلى كل من لاعب كرة القدم السابق نزار طرابلسي والمهتدي الفرنسي جيروم كورتاييه، اللذين دينا، كليهما، بالتخطيط لضرب أهداف أمريكية في أوروبا. أحد التقديرات الحديثة يخمن أن نحو خمسين شخصاً من هذا الجامع قضوا في عمليات إرهابية وهجمات تمردية في أكثر من عشر بؤر صراع في الخارج.

بداية قدم أبو حمزة نفسه على أنه مرشد روحي تابع للجماعة الإسلامية المسلحة ورئيس تحرير الأنصار. غير أن الجماعة كانت، مع حلول عام 1997، قد أصبحت متزايدة الإشكالية والغموض حتى في الأوساط الإسلامية، بسبب عنفها المتطرف. فمذابح المدنيين كانت تدفع حتى الجهاديين إلى التساؤل عما إذا كانت الجماعة قد أصبحت خارج التحكم، وبدأت الجماعة نفسها تتشظّى. كان الناصري شاهداً قريباً على السجالات الدائرة بين إسلاميي أوروبا حول البقاء مع الجماعة أو الانفصال عنها. سارع أبو حمزة إلى الابتعاد عن نشاطات الجماعة في تشرين الأول/أكتوبر 1997، تماماً كما فعل آخرون مع الزمن.

مواعظ أبي حمزة كانت مفعمة بالحقد والعنف اللذين غرسهما في نفوس أعداد لا تُحصى من الشباب. دأب على تدعيم مصداقيته بإشاعات عن كيفية فقدانه لإحدى عينيه ويديه الاثنتين في معارك الجهاد. غير أن الناصري كان يعرف القصة الحقيقية المؤكِّدة لكون إصاباته ناجمة عن حادث في أثناء إجراء بعض التجارب في أحد معسكرات التدريب. وحين قام الناصري بمكاشفة أبي حمزة رجاه الأخير أن يكتم السر تجنباً للإجهاز على سمعته.

تحول المسجد إلى مركز تجنيد لجماعات متحالفة مع القاعدة. ثمة أفراد كانوا يوفدون إلى أفغانستان مزودين بتذاكر السفر الجوي، المبالغ المالية، ورسائل التوصية الموقعة من أبي حمزة. فجيروم كورتاييه ادعى أن أبا حمزة كان المرجع

الذي مكّنه من دخول معسكر خالدان وأنه حصل على مبلغ ألفين من الدولارات لتغطية نفقات الرحلة. يرى بعضهم أن لدى المحققين الأمريكيين معلومات تؤكد أن أبا حمزة كان يتولى التمويل المباشر لمعسكرات التدريب في أفغانستان بما فيها معسكر دارونتا وعمل المصري. بعض كبار مجندي الجهاديين كانوا يعملون من الجامع راصدين أولئك المؤهلين ليكونوا مجاهدين محتملين. بين الأكثر أهمية كان ثمة جزائري يدعى جمال بغال الذي انتقل من باريس إلى لندن في 1997. فيما بعد جرى اعتقاله في دبي وأطلق موجة اعتقالات عبر أوروبا مع إحباط مؤامرة مزعومة ضد السفارة الأمريكية في باريس. في إحدى المراحل اعترف البغال بأن أبا زبيدة هو الذي جنّده غير أنه ما لبث أن أنكر اعترافه لاحقاً. هو الآن ينتظر المحاكمة في فرنسا.

إن جهاز الأمن البريطاني (المعروف لدى العامة باسم الام آي - 5) (MI5) ومعه جهاز الشرطة كانا يجتمعان سراً مع أبي حمزة بُعَيْد توليه إمامة المسجد في 1977 مباشرة، ولكنهما وقعا، على ما يبدو، في خطأ الاستخفاف به. فالسلطات كانت تعرف بوضوح - ولم يكن على هذا الصعيد أقل شأناً من الناصري وغيره من الجواسيس المحتملين - أن أبا حمزة كان، أقله، مشاغباً. ومنتقدو المملكة المتحدة يجادلون بأن ذلك لم يكن، عملياً، سوى نوع من عقد صفقة مع الجهاديين الحركيين: افعلوا ما شئتم فيما وراء البحار؛ سوف تُتركون وشأنكم طوال بقائكم بعيدين عن استهداف المملكة المتحدة. أما الرسميون البريطانيون فيجادلون قائلين إن هذا لم يكن قط اتفاقاً رسمياً بل كان مجرد نتيجة للإطار الحقوقي الذي يحدد تحركهم؛ لم يكونوا قادرين على محاكمة أحد بسبب نشاطات جرت فيما وراء البحار، فظلوا بدلاً من ذلك يحذرون الأفراد من التخطيط لأي شيء ضد المملكة المتحدة.

جرت إساءة استخدام تسامح البريطانيين، جنباً إلى جنب مع تقاليدهم القائمة على حرية الكلام، التعددية الثقافية، ومنح حق اللجوء. والسلطات

البريطانية العازفة عن التدخل في حرية الكلام أخفقت في تقويم ذلك النوع من الخطاب المسعور المنبثق من مسجد فينزبوري بارك جنباً إلى جنب مع ما صاحب ذلك الخطاب من فعاليات.

بلدان كثيرة أخرى غير فرنسا شَكَتْ من مسجد فينزبوري بارك ولكن شيئاً لم يُفعل. فالسلطات البريطانية لم تُقْدم على أي تحرك صارم حتى كانون الثاني/يناير 2003. إن معلومات استخباراتية عن مؤامرة محتملة لتطوير مادة الريسين السامة ما لبثت أن أفضت إلى مداهمة المسجد ذات فجر، وتم العثور على عدد من المواد الجرمية.

غير أن أبا حمزة بقي طليقاً، يواصل مواعظه في الشارع أمام المسجد (يلقي خطباً يستمع إليها بعض أولئك الذين نفّذوا تفجيرات السابع من تموز/يوليو 205 اللندنية). فقط بعد قيام الولايات المتحدة بإصدار مذكرة تسليم - مستندةإلى اتهامات بالتخطيط لتأسيس معسكر للتدريب في أوريغون - بادرت السلطات البريطانية إلى التحرك، تأثراً بالضغط الأمريكي في جزء منه. في تشرين الأول/أكتوبر 2004، جرى اتهام أبي حمزة وما لبث أن دين بجريمة الحض على القتل وجرائم أخرى.

ومن الشخصيات التي تجسس عليها الناصري ثمة الأردني - الفلسطيني أبو قتادة الذي كان قد وصل إلى المملكة المتحدة في 1993 بجواز سفر أماراتي مزور. طالب الأردن باستعادته بعد الحكم عليه غيابياً بسبب جرائم إرهابية، غير أن بريطانيا رفضت تسليمه ومنحتْه حَقَّ اللجوء في 1994. على النقيض من أبي حمزة، كان أبو قتادة باحثاً جاداً. لم يكن قائد أي مجموعة محددة أو منظِّماً، بل بقي، بالأحرى، عنصراً أكثر أهمية ربما - بقي منظِّراً إيديولوجياً ومرشداً روحياً.

إن الحاجة إلى الأحكام الدينية بالغة الأهمية بالنسبة إلى الحركيين الإسلاميين. ثمة حركيون كثيرون درجوا على الذهاب إلى أبي قتادة التماساً للإرشاد والتسويغ الديني لأفعالهم. وأولئك الذين يُعتقد أنهم تلقوا منه تعاليم دينية يؤلفون قائمة بأسماء عدد كبير من الحركيين الإسلاميين الذين يتخذون من أوروبا مقراً لهم ومنهم زكريا موسوي، نزار طرابلسي، وكمال داودي. أما جمال البغال فقد ذهب إلى لندن أساساً للتعلم من أبي قتادة. ثمة أشرطة تسجيل لمواعظ أبي قتادة عُثر عليها أيضاً في إحدى الشقق الهامبورغية التي كان يعيش فيها محمد عطا المشارك في هجمات 9/11. قام كبير محققي مكافحة الإرهاب الإسبان مرة بوصف أبي قتادة على أنه 'القائد الروحي' للحركيين الإسلاميين في أوروبا.

تمثلت قاعدة عمليات أبي قتادة بنادي الريشات الأربع (Four Feathers Club)، الذي هو نادٍ للشباب في مكان قريب من شارع بيكر ستريت اللندني المعروف. وحسب ذكريات الناصري فإن مواعظ أبي قتادة كانت أشد خطراً بما لا يقاس من خطب أبي حمزة تحديداً لأنها كانت أكثر انضباطاً، ومتركزة على الإعداد الروحي للتحرك بدلاً من الخطابة البلاغية. كذلك يعتقد الناصري أن تعاليم أبي قتادة كانت شبه مماثلة لنظيرتها التي تلقاها في معسكرات التدريب الأفغانية جزءاً من عملية تثقيف الجهاديين وغرس مبادئ الانضباط في نفوسهم. غير أن الرسميين البريطانيين ظلوا؛ مع ذلك، يطلبون منه ترك أبي قتادة وشأنه والتركيز بدلاً من ذلك على التجسس على أبي حمزة. إن السبب ليس واضحاً. وكما هي الحال مع أبي حمزة، فثمة من يعتقد بأن لأبي قتادة صلة بجهاز الام آي - 5 (MI5)، غير أن الطرف الذي كان يستغل الآخر ليس واضحاً بالضرورة.

في شباط/فبراير 2001، قام البوليس باستجواب أبي قتادة بعد العثور على مبلغ 170.000 جنيه إسترليني نقداً في بيته، كان جزء منه في مغلف يحمل

عبارة 'للمجاهدين الشيشان.' كان يفترض أنه يعتاش من المنحة التي يحصل عليها من الدولة، غير أنه لم يُتَّهَم. ومما أزعج السلطات كثيراً أن أبا قتادة بادر، في كانون الأول/ديسمبر 2001، قبيل وضع قوانين مكافحة إرهاب جديدة موضع التطبيق، إلى الهرب فجأة من منزله في غرب لندن، ونجح، على نحوٍ لافت، في أن يبقى طليقاً لمدة عام كامل تقريباً إلى أن جرى اعتقاله في لندن. ومن ذلك الوقت تلاحقت سلسلة من المعارك الحقوقية جراء سعي الحكومة إلى ترحيله وتسليمه إلى الأردن.

بقي الفرنسيون المطلعون بعمق على أحوال أبي قتادة وأبي حمزة شديدي القلق من تأثيرهما في شباب ضواحي المدن الفرنسية. غير أن موظفي الاستخبارات الفرنسيين ظلوا يشْكُون من أنهم لم يحصلوا إلا على جواب يقول إن بريطانيا دولة يتسع صدرها لحرية الكلام لدى سؤال نظرائهم البريطانيين. حتى حين كانوا يقدمون أدلة على وجود أخطار داهمة فإن الرسميين الفرنسيين لم يكونوا، حسب زعمهم، يلقون آذاناً صاغية إلى أن وقعت أحداث 9/11. وهؤلاء المسؤولون يشعرون بأن قرار بريطانيا بعدم التحرك كان سياسياً، مستنداً إلى العزوف عن إزعاج الوُعّاظ الإسلاميين واستعداء الجالية الإسلامية. ثمة من يرى أيضاً أن الفرنسيين فكروا باختطاف أبي حمزة. طبعة فرنسية للممارسة الأمريكية الراهنة لعملية 'التسليم غير العادي.' فحسب كلام ضابط استخبارات سابق، أرسل جهاز الأمن الخارجي الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE، فريقاً إلى لندن لدراسة الإمكانية وتوصل إلى قناعة بأن أجهزة الأمن البريطانية كان من شأنها أن تغض الطرف، رغم أن جهاز الشرطة ربما كان أقل قبولاً.

يزعم الرسميون البريطانيون أنهم تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الفرنسيين على صعيد التعامل مع شبكات جمع التبرعات لصالح الجماعة الإسلامية المسلحة في المملكة المتحدة، محاولين تعقب مصادر الأموال. وهم يأتون على ذكر الإطار

التشريعي بوصفه إحدى المشكلات. ففي أواسط تسعينيات القرن الماضي لم يكن التآمر داخل بريطانيا لاقتراف أعمال إرهابية في الخارج يشكل مخالفة. وبالتالي فإن جماعات مثل حماس ونمور التاميل جنباً إلى جنب مع الجماعة الإسلامية المسلحة بدأت تستخدم المملكة المتحدة مركزاً وبؤرة للتآمر. والبوليس لم يكن يحقق في أي مشكلة إلا إذا توفرت أدلة على اقتراف مخالفة محددة وانتهاك معين للقانون. لم تعمد أجهزة الشرطة والأمن إلى وضع عملية الحصول على معلومات استخباراتية عن هذه الجماعات في صدر سلم أولياتها. ثمة موظف بريطاني كان منخرطاً في عملية جمع المعلومات الاستخباراتية أواسط التسعينيات يجادل قائلاً: 'ما الذي يجعلك راغباً في معرفة ما سيقوم به صِبْيَةُ الفِرَق الكشفية' مسلطاً الضوء على أسلوب النظر إلى التهديد.

بقي خبراء مكافحة الإرهاب البريطانيون متركزين على التهديد الآتي من الإرهاب الأيرلندي الجمهوري بدلاً من الإرهاب الإسلامي. وقد بدا الأول أكثر واقعية بما لا يقاس. غير أن شباط/فبراير 1996 شهد انفجاراً هائلاً لقنبلة تزن نصف طن في منطقة أرصفة ميناء لندن دشَّنَ مرحلة جديدة من النشاط بعد فترة من وقف إطلاق النار. كان جهاز الام آي - 5 (MI5) والبوليس مشتبكين أيضاً في مشادة بيروقراطية حول الطرف الذي يتعين عليه إدارة خطة مكافحة الإرهاب في أيرلندا الشمالية - كان الأول، الام آي - 5، سيفوز - الأمر الذي أدى إلى تبديد جزء من الموارد والطاقة في ذلك الاتجاه.

فقط أوائل 1998 بدأت السلطات البريطانية تسمع بالقاعدة. وفي ذلك الوقت لم يكن الاهتمام منصباً على أبي قتادة، أبي حمزة أو أي من الشبكات الشمال أفريقية، إذ بقي متركزاً على جماعات من العرب جاؤوا نحو 1998، من مصر في الغالب، كما على عرب آخرين مرتبطين بن لادن بمن فيهم خالد الفواز. وكان يعتقد أن هذا الأخير كان يتولى إدارة مكتب بن لادن الإعلامي في

لندن، منشغلاً بتنظيم المقابلات مع الإعلاميين الغربيين ونشر التصريحات نيابة عنه.

قبل بضعة أشهر من تفجيرات السفارتين الأفريقيتين، قام رئيس قسم محاربة الإرهاب في مكتب التحقيقات الاتحادي (الاف بي آي FBI)، دون أونيل، الذي كان سيموت في مركز التجارة العالمي يوم 9/11، بزيارة لندن بحثاً عن أدلة ضد بن لادن. كان الاف بي آي قد فتح تحقيقاً في أعقاب نشر فتوى عام 1996 صادرة عن بن لادن في إحدى الصحف اللندنية الصادرة باللغة العربية. أما تفجيرات السفارتين في 1998 فجاءت توفر دليلاً أوضح على وجود خيط يقود إلى لندن. تمت مداهمة عناوين تلقت رسائل بالفاكس مدعية المسؤولية عن الهجوم. زُعم أن طرفي الفاكس وُجدا على حالهما مما أكد أنه جاء إلى مكتب مرتبط بخالد الفواز مع آخرين قبل حصول الهجوم. يقبع الفواز الآن في احد السجون البريطانية بانتظار الترحيل إلى الولايات المتحدة.

في حين أن العلاقة بين جهازي الاستخبارات في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بقيت قوية، نشأت علاقة أضعف على صعيد تطبيق القانون، ولاسيما فيما يخص مكافحة الإرهاب. فأونيل وزملاؤه في الاف بي آي عانوا كثيراً مع نظرائهم البريطانيين لأن الأخيرين كانوا يعتقدون أن الجيش الجمهوري الأيرلندي كان يستخدم الولايات المتحدة ملاذاً آمناً لنشاطاته، تماماً كما كان الفرنسيون يعتقدون أن بريطانيا كانت توفر ملاذاً آمناً للإرهاب الجزائري. وبالتالي فإن الطرفين ظلا يشعران بأن طلبات التحرك كثيراً ما كانت تتعرض للإهمال.

على الرغم من أن السلطات البريطانية بدأت بالفعل تقيم وزناً لفكرة الخطر المتمثل بالقاعدة منذ أوائل 1998، فإن تصور التهديد بقي بعيداً عن أشخاص مثل أبي قتادة، أبي حمزة، والجزائريين الناشطين في المملكة المتحدة.

صحيح أن أبا قتادة وأبا حمزة كانا على شاشة رادار السلطات البريطانية، ولكن على مستوى منخفض جداً، جنباً إلى جنب مع محاربين قدامى من مخلفات الحرب الأفغانية كانوا يُمنحون حق اللجوء السياسي في المملكة المتحدة، حسب كلام رسميين كانوا على رأس العمل في تلك الفترة. ببساطة، كانت لدى البريطانيين أولويات أخرى. فالإرهاب الدولي، ولاسيما الإرهاب المرتبط بالإسلاميين، لم يكن يُنظر إليه على أنه مصدر تهديد مباشر. كان من شأن فرنسا أن تشكل هدفاً أوّلياً لتورطها في الجزائر، أما المملكة المتحدة فلا.

إن بريطانيا تشعر الآن بالتأثير طويل المدى لسياستها القائمة على تحمل هذه العناصر المتطرفة في تسعينيات القرن العشرين. وظاهرة التطرف التي انتشرت في بعض الجاليات البريطانية لم تترسخ بين عشية وضحاها. إنها نتيجة عملية طويلة دأب فيها أفراد وجماعات، منهجياً، على استهداف جيل الشباب.

في الوقت نفسه، كانت تيارات النشاط الجهادي المختلفة هذه عاكفة على التلاقي والتقاطع. ففي 1998 تمخضت موجة جديدة من المداهمات في بلجيكا عن العثور على المزيد من الأدلة المؤكِّدة للطبيعة الدولية لجملة الشبكات الإرهابية وللخطر الذي تنطوي عليه. فالذين تم توقيفهم كانوا من الجزائر، المغرب، سورية، وتونس، وكانت لهم ارتباطات مع عدد من الجماعات الإسلامية المختلفة إضافةً إلى أبي زبيدة، أفغانستان، البوسنة، والباكستان. كشفت المداهمات عن وجود صواعق ومواد لتصنيع المتفجرات، كما ثارت شكوك (وإن لم تتأكد) حول استهداف مباريات كأس العالم التي كانت ستتم في صيف ذلك العام بفرنسا. أفضت العملية إلى موجة من الاعتقالات في طول أوروبا وعرضها. ظل الفرنسيون يعتقدون أن لندن كانت مركز التنظيم. إن إطار خطوط عريضة لسلسلة أكثر تعقيداً من الشبكات الإرهابية بدأ يطفو على السطح.

على الدوام بقيت أوروبا تشكل القاعدة المركزية لعمليات منظمة القاعدة، تشكل مكاناً أتاح لعدد غير قليل من الجماعات الإسلامية المتطرفة المختلفة فرصة اجتراح تحالفاتها. الإنذارات كانت موجودة، غير أن من أدركوها كانوا قليلين. كثيرون جداً في أوروبا وأمكِنة أخرى ركزوا طاقاتهم على قضايا أخرى نراهم الآن يدفعون الثمن. فبعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بخمس سنوات، نجد أن أوروبا ـ ولاسيما المملكة المتحدة ـ لا الولايات المتحدة، هي التي تواجه التحدي الأكبر المتمثل بالإرهاب.

إن عولمة فكرة الجهاد كانت من إنجازات بن لادن. إنها فكرة احتضان جماعات كانت من قبل محصورة بصراعاتها المحلية الخاصة ـ في الجزائر، آسيا الوسطى، بلاد الشيشان، وأمكنة أخرى ـ وإقناعها بأنها أطراف في عملية نضالية أوسع. إنه نضال ضد 'العدو البعيد' المتمثل بالولايات المتحدة، الداعم للحكومات التي تعارضها. إنه نضال تعين خَوْضُه تحت راية القاعدة. في شباط/فبراير 1998 أطلق بن لادن تصريحاً أعلن فيه تشكيل الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين. وقد أصدر فتوى تقول إن قتل الأمريكيين وحلفاءهم ـ مدنيين وعسكريين ـ واجب فردي على كل مسلم يستطيعه في أي بلد يوفر فرصة القيام بذلك.' وبُعَيْد ذلك، في آب/أغسطس 1998 كانت أولى عمليات القاعدة الناجحة الكبرى ضد الولايات المتحدة التي ضربت سفارتيها في كل من تنزانيا وكينيا.

تنتهي قصة الناصري مع انتقاله إلى ألمانيا، حيث انهارت علاقته مع الأجهزة الأمنية الألمانية. إنها ـ الأجهزة الأمنية ـ قد تخلت عنه، حسب رأيه، إذ امتنعت عن توفير الحماية والهوية الجديدة كما كان الفرنسيون قد وعدوه أساساً. حاول إعادة الاتصال مع عدد من الرسميين بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، غير أنه صُد. وبعد نحو أربعة أعوام، فيما كان يتابع

التفجيرات بلندن يوم 7 تموز/يوليو 2005، قرر أنه راغب في أن يروي قصته. قاده ذلك إلى مراجعة هيئة الإذاعة البريطانية، البي بي سي BBC، كما إلى تسجيل روايته الخاصة لقصة سنواته السبع التي أمضاها عاكفاً على التسلل، جاسوساً، إلى قلب حركة جهادية متعاظمة.

غوردون كوريرا

لندن، أيلول/سبتمبر 2006

* *

obeikandl.com

obeikandl.com

توطئة

سمعت عن هجمات 9/11 عبر الراديو. كنت في سيارتي، ذاهباً لنقل زوجي من عملها إلى البيت. كان المراسلون قد قدّروا أن طائرة كانت قد صَدَمَتْ البرج الأول مصادفة. ركبت زوجي السيارة. هي أيضاً اعتقدت أن الاصطدام لم يكن إلا حادثاً عَرَضياً.

أما أنا فكنت أعلم أن تلك لم تكن حادثة عَرَضية. أدركتُ الأمر حتى قبل اصطدام الطائرة الثانية. وكنت أعرف الفاعل. بعد وصولنا إلى البيت فتحت التلفزيون على السي ان ان (CNN). البرجان، كلاهما، كانا يحترقان الآن، والناس في الشوارع كانوا يزعقون.

فعلتُ الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع أن أفعله: رفعت سماعة الهاتف للاتصال بزبوني في جهاز الاستخبارات الألماني. لم أكن قد تحدثتُ معه منذ سنة ونصف، وكنت أكرهه. غير أن ألوفاً من البشر كانوا يموتون، ولم يكن أمامي خيار آخر.

رد على الفور. حين كشفت عن هوية الفاعل، بدا مستغرباً. قلت: 'اتصلت عارضاً مساعدتي'.

'أنت تعرف من فعل هذا؟ هل أنت على معرفة بأي من المختطفين؟'

'لا. غير أنني أعرف الجهة التي تقف وراء هذه العملية. أعرف لماذا اقترفوا هذه الفِعْلة. أعرف هوية هؤلاء الناس كما أعرف أسلوب تفكيرهم.'

كنت أعرف هذه الأشياء لأنني كنت أعرف القاعدة. في بلجيكا كنت قد عشت مع أعضاء من القاعدة لسنوات، على الرغم من أنهم لم يكونوا، بعد، ينضوون تحت هذا العنوان. اشتريت بنادق لهم، شحنوها إلى سائر أرجاء العالم. نقلتُ متفجراتهم إلى قلب أفريقيا، حيث استُخدمت في الحرب الأهلية الجزائرية. وزّعتُ رسائلهم الإخبارية. كنتُ أعرف قياداتهم العليا في أوروبا. أحدهم تولى تنظيم تفجيرات المترو الدامية في باريس عام 1995. آخرون كانوا على علاقة بعملية اختطاف كارثية قاتلة. هؤلاء الرجال كانوا يعيشون في بيتي.

فيما بعد، ذهبت إلى أفغانستان، حيث أكلتُ ونمتُ وصلّيتُ مع القاعدة في معسكرات التدريب. حرصت على توثيق علاقتي بها قدر ما استطعت. تقاسمت مع أفرادها غضبهم وألمهم؛ شاركتهم ببنادقي وعَرَقي. خاطرت بدمي من أجلهم، بل خاطرت بحياتي خدمة لهم أكثر من مرة. كانوا أشقائي، وكنت مستعداً أن أعطيهم أي شيء أملكه بفرح.

معهم أصبحت مجاهداً، مُتْقناً فنون التعامل مع جميع صنوف الأسلحة على كوكب الأرض، من بواريد الكلاشنكوف إلى الصواريخ المضادة للطائرات. تعلمتُ قيادة الدبابة وأسلوب نَسْفها. تعلمتُ كيف أزرع حقل ألغام. وكيف ألقي قنبلة يدوية لإحداث أكبر قدر ممكن من الخراب. تعلمتُ فن القتال في المدن وأساليب تنفيذ الاغتيالات وعمليات الاختطاف إضافةً إلى كيفية مقاومة التعذيب. تعلمتُ كيف أصنع قنابل قاتلة حتى من أبسط العناصر والمواد مثل البُن والفازلين. تعلمتُ كيف أقتل إنساناً بيدي.

تعلمتُ عن المدافع والقرآن والسياسة العالمية من ابن الشيخ الليبي الذي كان يتولى إدارة معسكرات التدريب العائدة لأسامة بن لادن، والذي كان، لاحقاً، سيكذب على وكالة الاستخبارات المركزية حول وجود علاقات بين بن لادن وصدام حسين. التقيت أبا خبب المصري، كبير خبراء بن لادن في موضوع

المتفجرات، الذي حاول تجنيدي لتفجير إحدى السفارات. التقيت أبا زبيدة، كبير مجنِّدي القاعدة، الذي أعادني إلى أوروبا للعمل عنصراً في خلية جهادية نائمة، مع تقديم الخبرة في موضوع المتفجرات لدى الإعداد للهجمات.

غير أن أحداً من هؤلاء لم يكن يعرف الحقيقة: حقيقة أنني كنت قد انقلبتُ عليهم وأصبحت ضد قتلهم للأبرياء. حقيقة أنني كنتُ جاسوساً. حقيقة أنني تسللت إلى معسكراتهم عميلاً لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس اي DGSE). كنت لا أزال أعمل لدى هذا الجهاز ومن بعده مع جهاز (الام آي - 5) (MI5) .البريطاني بعد عودتي من أفغانستان إلى أوروبا، رغم أن أبا زبيدة بقي مقتنعاً بأنني كنت أعمل عنده. لصالح جهازي الاستخبارات الفرنسي والبريطاني توغلت في المسجدين اللندنيين المتطرفين لكل من أبي قتادة وأبي حمزة. وخدمة لأبي زبيدة، نقلتُ الرسائل بل وأرسلتُ المبالغ النقدية إلى الباكستان دعماً للجهاد - وهي مبالغ كان ضباط الاستخبارات البريطانية يزودونني بها.

خلال مسيرة رحلتي قابلت المئات ممن هم صور طبق الأصل عن مختطفي الطائرات في 9/11. كانوا رجالاً بلا أوطان؛ رجالاً لُعنوا في الغرب لأنهم ليسوا بيضاً وليسوا مسيحيين، ولُعنوا في أوطانهم لأنهم لم يعودوا يشبهون المسلمين من حيث الملبس وأسلوب الكلام. غيظهم المشترك كان ملاذهم الوحيد، الشيء الوحيد الذي كان يربطهم بعقيدتهم، بأُسَرهم، بالأرض.

أفهم هذا كله لأنني كنت واحداً من هؤلاء الرجال.

'هل تعرف من قام بهذه الفعْلة؟ هل تعرف أياً من المختطفين؟'

'لا. غير أنني أعرف الجهة الكامنة وراء العملية. أعرف لماذا أقدموا عليها. أعرف هوية هؤلاء الناس، وأعرف نمط تفكيرهم.' أخذتُ نفساً، ثم تابعت: 'أريد أن أساعد.'

كانت فترة صمت قصيرة على الطرف الآخر من الخط، ثم جملة يتيمة: 'سنعاود الاتصال بك إذا احتجنا إليك.' ثم نقرة. لم أعد أسمع أي شيء بعد ذلك.

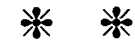

obeikandl.com